

تعديل في موسيقى الحجرة

قاسم حداد

١

تَعَبَ الظَّنُّ.

ما من خليجٍ. وهذي الخليقة تكبو، ويكبر أطفالها ويستفحل فيها الظلامُ. اطمئنَّ لها الطيرُ، واستقرتْ
إبرٌ في الغرائز. جاءتْ جيوشٌ تجرُّ حُرَّ أحلامها / لحمها الأدوات، وتختبر فيها العناصرُ. تغزو. تناوبها
الرومُ والفُرسُ والنغرسُ المستمر، وانتهبَ التركمان تضاريسها وانكسر الصولجانُ، وامتحنَ القرامطةُ
الزرعَ والصرعَ، واحترَبَ الزنجُ فيها نخيلاً وماء. بدأ الزارعون لكي يحصدوا، غيرَ أن البحارَ لها آيةٌ في
الجزيرة. ما إن تضجَّ الطيورُ الصغيرة في الدمِّ، وينتابُ أطفالها الوهجُ، حتى يطيش بها الملحُ، تنهض
أحلامها / لحمها في الخليقة، في ما تبقى من البيت فيها، وأطفالها شجرٌ يابسٌ في الجيوش.

سمعنا / رأينا

الأساطيرُ تخرج مذهولةً، والجزيرةُ تجري وتسحبُ أشلاءها.

فإذا صادفكم برجها، وانتصف الليلُ، حطوا ركابَ القوافل في حزنها. سوف تكتب أسماءها المستتارة
في زرد الخيل. نخلٌ يورِّع خضرته كتباً وتعاويز.

فانتبهوا

كلما سمعتم / رأيتم.

٢

يبعثُ الأنبياءُ رُسُلهم إليها، ويرسل الملوك الجيوش. سلامها أكثر فصاحة من الحرب. ألسنتها كثيرة
ولغتها واحدة:

ماذا تريدونَ منها

ماذا تأخذونَ؟

أبوابها على الأفق، والبحرُ مفتوحٌ على بيتها. كلُّ نبيٍّ جوابٌ، وأسئلتها تصدُّ الملوك. كلما ماتَ نبيٌّ ارتفعتِ الصواري وارتدَّ الموجُ عن الغزو. وانتفضت الأستلة:

ماذا تريدون منها.

ماذا ستأخذون؟

خيلاً تجر سجادة البحر، فيأتي الساحلُ بأسماله وأعشابه ورملة وقواقعه وحاشيته، في شباكٍ مهلهلة. يدخل السوق. يطرح مخلوقاته ويبدأ في مديح العمل. ويبدأ الناسُ في زرعهم. النخل مظلات لهم. أعوادُ البقل عكازاتٍ في بريد الأنبياء وعسكر الملوك. لا ينجو شعبُها من موتٍ ولا ينال الحياة.

ماذا تريدون منها،

ماذا ستأخذون؟

حوضُها مرضوضٌ بالحافر والخفِّ.

صلاتها مكسورة وحرَبُها منصوبة،

لا تدخل القتالَ،

لا تحسنه ولا تريده.

٣

طَفِقَ الخزافون يحفرون الأختامَ وينحتون الرُقومَ ويرسمون الرقشَ في زندها. لئلا يخطوها الطوفانُ ولا تنقُصُ التجارةُ عنها. يهندسُ سدَّتهُ العملِ الأفلاجَ لها، فلا يتأخر الماءُ عن مكانه ولا الزرع عن أوانه. شعبٌ يكالمُ الأرضَ ويستدرجُ الطبيعةَ ويأثلف مع العملِ: كلُّ على قدر حاجته.

تجري الأرزاقُ مثل الماء في الجداول.

ما من رسولٍ إلا ويدهُ في الصلصال، ولا جنديٌ إلا آتته في الشغل، وللدول قنائلٌ تعرف الحَرثَ والغرسَ وفقه الأسلحة.

فماذا تعطون وماذا تأخذون؟

يتحشّدون مثل الأنعام وهي تُسَلِّمُ قيادَها للصوت والصدى. تصدر عن النص ونقيضه، فيذهب الصدى بالحشود، مما تبقى من الكيمياء، كلام البخار يحو بشراً تندلع فيهم شهوة الشك، فيندفعون يستسلمون لرمادٍ باردٍ، يتكدّسون في مداخل القرى ومنعطفات المدن. يفتحون الحناجر، ويغلقون الطرق. فيذهب الصدى بالحشود، مما تبقى من الفيزياء. جراحهم تطلع في أنفاسهم مثل بخور الجنائز، أكثر جَهْراً من الموت، وأكثر خفاءً من الصلاة. خرافيون، يضعون لمواكب الجموع سككاً، وللأحلام طرقاً وطرائق، لا تتأخر ولا تنحرف. تتدافع أرواحٌ مهمومةٌ مكسورة، تَفْرُ من صَوَارٍ فتقع في الأشراك والخدائج. كلما طرحتُ فلذاتها في السفوح والسواحل ذهبَ الصدى.

بلادٌ، بوتقةٌ للفرار، وشعبٌ من الغبار ومنافحات الأسمى. بين البرزخ والأرخبيل حشودٌ هشيماً. يُصْعَرُونَ جبهةً للصلاة، وفي قيامهم تأتي التربة والسجادة وتذهب بالأسماء والأفئدة، فلا يعود السؤال يسأل ولا الجواب يعرف. وليس في الحشود من يصغي. فيختلط القول بالقائل، ويدخل الوقتُ في المكان، لا يدرك الدنيا من الآخرة. تصعد فيهم الروحُ في سقف السماء، فيذهب الصدى بالصوت والحشود.

تضجُ السماءُ عجيزتها في قصعة الدم. إرثُ الأسافين بين القرى والمدينة. في الخاصرة في ركنها الجاهلي. ليست سماءً. لأخبارها لعينين دامعتين، لما بينَ بينٍ. انتهى ما يسمى بلاداً إلى كهفٍ. وهي في قصعةٍ. كنتُ سَمَّيْتُها. وهي في العَيِّ. أحببتُها مسجداً في الكنيسة، نورساً تائهاً في الخليج. قلتُ هذا المزيج بلادِي. وقلتُ. بَكْتُ. أجهشتُ. وأحبتُ ما عندها من رسائل. جاءها الأنبياء:

سليمانُ في لغة الطير. يوسُفُ في سجنه. عيسى على خشب الصلب. موسى كليم السماء. أحببتُ ماء الزعفران بها. وأحبتها وهي سادرة. عَبَرْتُ لها المفازات. كنا نُسَمِّي بلاداً. وهي تفاحة. هي الختم. يا غيماً غَيْرَ جذورِكَ. ليستُ سماءً. وأخبارُها لغةُ الأنبياء لَمَّا يجيئون:

يونسُ في حوته. نوحُ على الفُلك. أيوبُ في مرض الموت. كلُّ نبيٍّ كتابٌ على بابها. كنتُ أحببتُ فيها، وأحبتها هودجاً ضائعاً بالمليكات. جيشٌ من العطش الجاهلي. يجيئون يستنفرون لها: أمويون، عباسيةٌ، زنجٌ وقرامطة وعيونيون، صفويون، عصفرة، ونصاري ومرضى من العشق. عربٌ عاربةٌ هاربة كالغبار. يعبرها الجندُ، يحرسُها بحرٌ يزخرها بالأسماك الحُسنَى. سماءٌ تَفْهَرُ سَهاً فَرَسٌ في الكتاب.

٦

رأيت الخريطة نهراً تتركه الدلالة
هَمَلًا بين موتين.
يموتون،
ماءٌ يضيِّعه رَمُزه
ليس يدري مآله.

٧

شرفٌ
أن ينهض البحرُ بأقدامه المُرحِيةِ
يأخذني،
يأخذ من لغتي لثغَةً ذهبية
ويخطفني موجةً موجةً
مثلما صَبَّحَ الماءُ معجمَه في طيورٍ
وأطلقها في كلام الشعوب القصِيةِ
شرفٌ أن يقرأ الشرفُ أخبارَه في كتابٍ
سيمنحني جنَّةً لا تُطال
ويتركني ليقين الجحيم
فهل كان بحرٌ،
وهل في لسان العرب الفاتحين،
من الضوء،
ما ينتهي في تفاصيلنا الدموية.

يبتكر البدو في رقصهم سيفاً
يَسْتُونُ السَّمَاءَ بِهِ
ويؤجلون الأرضَ بالعشب القديم
تبدأ القطعان في المرعى
وتضطرب الدماء.
جاء البدو وابتكروا
وغنّوا وانتهوا
يتحاجزون على القرى
وتكون شمساً في العماء.

انتظرتُ أن يُقْبِلَ البحرُ عائداً على قدمين من العشب، يبشّرنا بما سَهَتِ الفهارسُ عن رصده
بالتفاصيل التي سقطتُ من "دليل الخليج"، في نسخة الهند.
انتظرتُ المخطوطَ المحبوس في مكتبة الله، ليخرج يقطر بالحبر والملح، يبحث عن ألسنة ضائعة،
يحسن فك الحرف، ويخبرنا كيف تهجّى البحرُ كلامَ الأرض.
انتظرتُ يبارقُ أهل الردة ترجع، في حجر الأسئلة الأخرى، تنبثق النارُ من النارِ، وينهض كلُّ نبيٍّ
من وهدته.
يدرك ما ينهار، ويسبق من يرتد.

انتظرتُ حمامةً تفشي لنا سرّاً عن الطوفان.
قلتُ، لعل ماءً غاضباً خلف الغموض،
لعلنا، سنغير العنوان،
لم يأتِ الحَمَامُ

ولم يكن برقى انخفاف الطقس ماءً،
لم يكن حتى دماءً.
كانت الرؤيا تَغيمُ،
وأنبياءُ الله في سُننِ تَهِيمِ،
لعل طوفاناً سيدرك شعبها
قبل انتهاء الأرض،
تنتظر انتظاري في السديم.

١١

انتظرتُ قافلة المعجزات، لكي لا أرى سماءً مشدودة تغادر في الإبل. تتدلى منها كتبٌ وخرائطُ،
وفناراتُ. سربُ العميان يقود العطشى للماء. لعل القافلة تأتي.

١٢

عَكَفَ النطَّاسون على عِلَّةِ اللؤلؤ. لكشف الداء ووصف العلاج؟ فكلمنا فتحوا محارةً عطستُ في
وجوههم، وانبثق ما يشبه الدخان الخائس، وتراءتُ لهم فلذة نورٍ مدحليةٍ، تريد أن تهربَ في خجل
الكائن لحظة خلقه. فيظنُّ النطَّاسون أنهم قَصَّروا عن إدراك الخلق وتأخروا في المعرفة. وحدهم
الغواصون صائدو اللؤلؤ يقتنصون اللحظة المريضة، ويحصدون اللؤلؤ في المحار، وساعة اقتسام الليل
والنهار يتخذ النطَّاسون وضعَ الريح والخسارة، فتبدأ التجارة. في لحظة الصدفة بين العذب والأجاج،
يبتكر الزجاجُ تقنية الحجر الكريم. تُقايضُ المحارة حبة القلب والحجارة، باللؤلؤ المريض.

١٣

انبثق الجمرُ واستيقظتُ فتنهُ،
وازدهرَ الضاغنون،
كأنَّ الجنون.

طرحت أساطيرها في ناس الأرض
 فحملوا إليها مرضى الموت
 وقصدها من نالته الأسقام
 وسعى إليها الموشكون على السفر
 لكي ينالوا من جنتها بيتاً.
 فأضحت جبانة الأرض
 وامتألت قبوراً وقتلى،
 وصار لكل ذي علة تله
 يتراكم الموق
 والماء حجر في الحناجر،
 آخت الخناجر جراح المكلومين
 فاحتكم المظلومون إلى الظلمة
 والغزاة إلى الضبع
 والعبيد إلى السوط
 فإن مررتم بها وسمعتم أئينها
 لا تحسبوا ذلك من حنين الإبل
 لكنه شجر الزنزلخت،
 فاعطفوا أعنة خيلكم نحو إيوانها
 تجدون البسط والسموط والسرادق
 منصوبة لكم،
 تناولوا النبيذ والقديد،
 تلك هي صورتها
 قبل البحر وبعده.

أبانا الذي في البحار
تغيبُ طويلاً بحجة اللؤلؤة الضائعة
فكرةً رائعة
وتكفي لنقتنع الآن بالانتحار.
أبانا،
ونحن هنا وحدنا في الجزيرة
تحت السماء الأخيرة
ما مِنْ وليٍّ وما مِنْ نبيٍّ
ومن دون جدوى
وليس لنا أملُ الانتظار.
أبانا الذي في البحار
هل الليل في الهند
أقصر من ليلنا
وهل موت أفريقيا
سيكون رحيماً على أهلنا
كي تغيب طويلاً هناك
وتتركنا
توزّعنا في الطغاة
وتقرأ صبراً علينا
وتذهبُ
تعللنا بالتجارة والغوص،
والفقر فينا، وتذهب.

تُحرِّزُ زوجاتنا
وتطلقنا للغريب
ليعبث فينا ويذهب.
أبانا،
تخلَّيتَ عنَّا
وأسلمتنا للقراصنة المحبطين
لتعسف بنا.
هل ترى سوف تنسى بنيك
وتفتعلُ التيهَ
تغرق في زنجبار
وتترك للسادة الملحدين
لتنحت أجسادنا بالقواقع
والحجر المستثار.
قل لنا،
يا أبانا الذي في البحار
متى تنتهي من عذاب الخريطة
كي نستعيدك
نبراً من علّةٍ في المحار.

١٦

... وكانت إذا ما دخلتِ السفنُ الألفُ
في البحار التسعة،
لتسوّر الجُررَ / تصونها وتحميها،

طاش الخليجُ بموجٍ يتصاعد وينداح،

يرفع الخشبَ نحو الأفق

ويجرف الأسماك نحو السواحل.

فتظهر للسفنِ أسماءٌ تَشِي بالصفات والطبيعة :

السنبوك، البوم، البتيل، الماشورة، الورجية، البقارة، الكيت، الشوعي، الصمعا، الجالبوت، الهوري،
الدخر، الصيخ، الشاحوف، البغلة ..

فتكون أبوابُ البحرِ أكثرَ من أبواب السماء.

غير أنَّ الريح ليست صديقة السَّفَر. فالموج سيوفٌ وخناجرٌ تحزُمُ الماءَ بالأشراك والخدائع. فإذا
كنتم في ساحلٍ أو مركبٍ أو رحيل. ولمحتم ذلك البريق الوامض، فلا يظننَّ أحدٌ أنها السماء. إنه
بحرٌ يستفرد بالطريده. فجردوا أدواتكم لتخطوا تاريخها. حيث العاصفة شقيقة الطريق، والسفنُ
خشبٌ يرسم النعش. والصواري صليبٌ يسعُ الفيزياء والشك.

١٧

الخليقة وأطفالها، يُقبلون على الأرض في هيئة البدء، فينتهون. يصبون أخلاطهم في القوارير.
يتقدمهم الدمُّ الطهور. تتخطفُ أرواحهم خطوات السديم. ويتمائل في أشكالهم الوقت مثل رماذٍ
في الدم.

الخليقة وأطفالها. سمكٌ يتألم في حضان الماء. برزخٌ يجزُّ الجسور. في امتزاج البدء بالمنتهى.

هذه / تلك / من أين /

ماذا ترى؟

جزرٌ ترتجُّ تحتها الصلاة. جنسٌ يجزُّ، وكسرٌ لا جبرٌ له.

فَيُسَلِّمُ حَشْدُ تاريخه للحشر.

الخليقة وأطفالها.

تيةٌ جديدٌ يخلخل علم البحار،

تلك هي وردة "ابن ماجد" وهي تدبُّ

ولا أحد يعرف
من أين جاء "بن ماجد".
يقود الجزيرة بالخيط كالموج
يضل أسطراب الطبيعة
يجترح بوصلةً للضياح،
ويقترح الشرق على الجهات.

١٨

حجرٌ في الطريق
أثرٌ في الطريق

يربطون الإبريسم المنذور بخضرته اليانعة، يَنْسَلُونَ منه القمصانَ والعصائب. يصير هو الطريق
والحجر وفجوة الرأس. يتنادون، يطرحون الصوتَ للصلاة والحرفَ للبيت. يجمعون من حصّة البرِّ
ونصف اللقمة، وفي يوم الجمعة والخميس والسبت والأربعاء، يَشِيدُونَ المساجدَ في أرض مَغْصُوبَةٍ
فتصير بيوت الله فجوةً في طريقٍ مقطوعة. وينشأ بين المسجدين محرابٌ وراكعون. مساجد أكثر
من المؤمنين. كلما كَثُرَ المصلُّونَ شَحَّت الصلاة وَقَلَّ الدين. المسجدُ أن تَضَعَ حجراً على حجرٍ، الطريق
أن تسأل حجراً عن حجر. لله بيتُ المكان والوقت، وله العراءُ والديه.

١٩

بلادٌ / جزيرةٌ / جزيةٌ / جنّةٌ / جَبَانَةٌ / جنون.
تقرأها النساءُ، يذهبنَ بها للقواميس ويخرجنَ في هيئة الأبدية. يغزلنَ لها أطفالاً يَتَهَجَّوْنَ بلاداً
ذاهبةً في جحيم المعجم. نساءٌ يطلبنَ الحُبَّ من المهد إلى اللحد.
جيمٌ جنّةٌ / جيمٌ جنازة.
بلادٌ تطلُبُ الحُبَّ فتصابُ بالجُبِّ.
وفي النساءِ ما لا يفنى
عندما يموت.

٢٠

قيل فلما انبثق الزعفران، ازدهرت الأوسمة وشحَّ الدَّسَمُ، فانتهبَ الثلثُ واقتسَمَ الثلثان بين الملك
والممالك، وتفاقمَت الحضارة لتصيرَ وَرَمًا وطُحَالًا، وانتشرَ في الأرضِ دعاةُ الوباء بوصفه دواءً.
لا مسافةً بين الصحراء والسفر، لا وسائلَ ومن غير لغةٍ.
وانحصرتِ المعاني وكفَّ الأدلاءُ.
لم يعد الزعفران لوناً ولم تعد الرائحة.

فإذا سرى فيكم عطرها، قفوا حولها، واصبروا عليها، اصبروا، إنها حرَّةُ البحر، يمنحها الحوتُ حبةً
العنبرِ بلسماً لجرحها، ولؤلؤتكم نجمةً الليل.

٢١

عرشها على الغمْرِ. الماءُ قرينٌ لها، والوقتُ أيقونة صلاتها. حتى إذا أدركها الحيضُ، اصطفَّ الملائكةُ
بقناديل النهار والليل، بالزهر والقرنفل، يتلقون دمها الطهور بالدوارق والأباريق. يُطوَّبونَه بالعود
والبخور، يهبونه بالقسطاط لتعثرَ العذارى بالحب، العوانس لا يفوتهن الرجال، والعواقر لئلا
يخسرنَ حبلاً ولا مخاض. ذلك من خير الأرض إذا أعطتْ، وثمرها كلما أئِنعتْ. فبعد كل نذرٍ صادقٍ،
يفيض الحيضُ ويكفُّ الحيف.

٢٢

فلتكن، يا بحرنا، برداً بنارك. فالحبُّ دارك. والخوفُ جارُك.
فأرافُ بمن ضاقتْ به الأرضُ، واجعلْ لنا جنَّةً في جوارِك.
يا أيها البحر كُنْ جناحَ الشريد إذا هَجَمَ الجندُ،
كُنْ،

ثم خذنا. وخُذْ في النوارس أخبارنا.

خذ بريداً لنا.

يا بحرنا،

كُنْ لنا خيمةً في الصحارى،

وَكُنْ نزهةَ الصيفِ، كُنْ دفأنا في الشتاء.
هذه الأرضُ لكُ،
أشجارُها بالثمارِ القديمة لكُ
والكتابةُ والمحو لك
والجسورُ المشادةُ بالعظمِ واللحم لك
وأولادنا قبل أن يولدوا
في المهدي لك
وفي اللحد لك
مراكبنا، وهي في مائِكَ الأزرقِ، لك
لك الأنبياء
لك الشعرُ والنثرُ والخيرُ والشرُّ لك.

بلادُ، تفاصيلُها واحتمالاتُها
كل أسمائها، منذ قرنين لكُ،
وليس لنا غيرُ نسيانها.
أيها البحر
يا بحرِها
كُنْ لنا مرةً .. كي نكون
كما القلبُ،
يؤلفنا حبنا موجةً موجةً
من غير أن نسألُك.

من كتاب قيد النشر بعنوان (تعديل في موسيقى الحجره).